سفيان الثوري

(٩٧-١٦١هـ)

أمة وحده

obeikandl.com

العلماء ورثة الأنبياء، عليهم أن يبينوا للناس أمور دينهم، وصلاح دنياهم وأخراهم حتى لا يكونوا ممن عناهم الله بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

فإن لم يؤدوا رسالتهم انتفت عنهم الخيرية التي أمتن الله بها على أمة محمد ﷺ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩].

فالعلماء ورثة الأنبياء لأنهم يكملون الرسالة ويدعون إلى الحق، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، مثلما يفعل بعض علماء هذه الأيام، الذين نسوا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾[البقرة :١٧٤].

أين علماء اليوم الذين سكتوا عن الحق من علماء الأمس الذين اعتزوا بالعلم فأعزهم الله، ولم يبيعوا إخلاصهم بعرض زائل من أعراض الدنيا، ولم يقولوا كلمات النفاق حرصاً على منصب أو مال.

فلقد أغلى الله سعرهم، ورفع من قيمتهم، فلم يستطع أن يشتريهم أحد غير ربهم.

من هؤلاء العالم الفقيه التقى الورع، أمير المؤمنين في الحديث «سفيان بن سعيد الثوري» سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. والذى ولد بالكوفة عام ٩٧هـ. ونشأ بها، أراد الخليفة المنصور منه أن يتولى القضاء فأبى، فارتحل إلى المدينة، ثم سكن البصرة ومات بها عام ١٦١هـ. له من الكتب: الجامع الكبير، والجامع الصغير في الحديث.

لم يسكت على باطل:

هذا العالم لم يخش في الله لومة لائم، ولم يسكت على باطل رآه، ولم يكف عن توجيه النصح إلى الحكام قبل المحكومين. عندما تولى «الرشيد» الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا «سفيان الثوري»، فإنه لم يأت وكان بينهما صُحبة، فشق ذلك عليه، فكتب «الرشيد» إليه كتاباً قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله «هارون» أمير المؤمنين إلى أخيه في الله «سفيان بن سعيد الثوري».. أما بعد:

يا أخى فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أحرم فيها حبك، ولم أقطع منها ودك. وإنى منطو لك على أفضل المحبة، وأتم الإرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى –يقصد الخلافة– لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبى من المحبة، وإنه لم يبق أحد من إخوانى وإخوانك إلا زارنى، وهنأنى بها صرت إليه، وقد فتحت بيوت المال، وأعطيتهم من المواهب السنية ما فرحت به نفسى وقرت به عينى. وإنى استبطأتك فلم تأتنى، وقد كتبت إليك كتاباً منى إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك.

وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته. فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل..»

حرَّمت حبك:

فلما وصل الكتاب إلى سفيان وفرغ من قراءته قال: أقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يُجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يُصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا.

فقيل له: ما نكتب إليه..؟

قال: اكتبوا له: «بسم الله الرحمن الرحيم.. من العبد الميت «سفيان» إلى العبد المغرور بالآمال «هارون» الذي سُلبَ حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن.

أما بعد:

فإنى كتبت إليك أعلمك أنى قد حرَّمت حبك، وقطعت ودك.

وإنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه. وأنفذته بغير حكمه. ولم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى، حتى كتبت إلي تشهدنى على نفسك..؟

فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غداً بين يدي الله الحكم العدل..؟

يا هارون.. هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله تعالى، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟. أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام؟ أم رضي بذلك خلف من رعيتك؟.

فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً. واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل. فاتق الله في نفسك إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً.

كيف بك غدا؟

يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين.. ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدون الشارب، ويزنون ويجلدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق. ويقتلون ويقتلون القاتل. أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها عى الناس؟(*)

فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى لمنادى من قبل الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]. أين الظلمة وأعوانهم؟ فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك. والظالمون حولك، وأنت لهم سابق وإمام إلى النار.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦].

(*) د. عبد الرحمن عميرة، مواقف العلماء أمام الحكام والولاة، دار العلم والثقافة، القاهرة،٢٠٠٢، ص٣١.

وكأني بك يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك.. بلاء على بلاء، وظلمة، فوق ظلمة فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمد ﷺ في أمته. واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك.

وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحداً بعد واحد، فمنهم من تزوده زاداً نفعه. ومنهم من خسر دنياه وآخرته.

فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التي وعظتك بها، واعلم أنى قد نصحتك، وما أبقيت في النصح غاية. والسلام».

فلما وصل الكتاب إلى «هارون الرشيد» أقبل يقرؤه والدموع تنحدر من عينه وهو يشهق. فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، لقد اجترأ عليك «سفيان»، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد ووضعته في السجن، وجعلته عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه، يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه. والشقى والله حقاً من جالستموه. إنه سفيان أمة وحده.

..هذا ما فعله «سفيان الثوري» مع الخليفة «هارون الرشيد».. فهل يمكن أن يحدث ذلك في أيامنا هذه؟ هل نجد العالم الفقيه الذى يقول للحاكم: اتق الله؟

النهى عن الإسراف في أموال الأمة:

لم يكن هذا هو حال «سفيان» مع «هارون» وحده، ولكنه كان كذلك مع كل حاكم وسلطان لا يرعى الله في أمة محمد ﷺ. فقد تعلم «الثورى» أن الإسراف في أموال الأمة من أكبر الكبائر عند الله سبحانه وتعالى، لأنه سبحانه لا يرضى للمرء أن يسرف في ماله الخاص، فكيف بأموال المسلمين.

قال سفيان الثوري: «لما حج الخليفة المهدى أرسل إلىّ من يأخذنى إليه ليلاً، فلما مثلت بين يديه أدنانى، ثم قال: لأى شئ لا تأتينا؟. فنستشيرك فى أمرنا، فما أمرتنا فى شيء صرنا إليه، وما نهيتنا عن شيء انتهينا عنه، فقلت له: كم أنفقت في سفرك

هذا؟. قال: لا أدرى، لى أمناء ووكلاء، قلت: فما عذرك غداً إذا وقفت بين يدى الله تعالى، فسألك عن ذلك، لكن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما حج قال لغلامه: كم أنفقنا في سفرنا هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين ثمانية عشر ديناراً، قال: ويحك، أجحفنا بيت مال المسلمين.

كان «سفيان الثوري» من الرجال الذين اختصهم الله من بين العباد بقوة الإيمان وصدق العزيمة في مواجهة الباطل والوقوف بجانب الحق والدفاع عن مصالح الأمة.

دخل «الثورى» على «أبى جعفر المنصور»، فقال له «أبو جعفر»: ها هنا يا أبا عبد إليّ إليّ، ادن منى، فقال: إنى لا أطأ مالا أملك ولا تملك، فقال «أبو جعفر»: يا غلام: أدرج البساط، وارفع الوطاء، فتقدم «سفيان»، فصار بين يديه فقعد، ليس بينه وبين الأرض شيء، وهو يقول: «منها خلقناكم وإليها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى»، فدمعت عينا أبي جعفر، ثم تكلم سفيان، فوعظ وأمر ونهى وذكر، وأغلظ القول، فقال له الحاجب: أيها الرجل، أنت مقتول، فقل «سفيان»: وإن كنت مقتولاً فالساعة، فسأله «أبو جعفر» عن مسألة فأجابه، ثم قال «سفيان»: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال الله ومال أمة محمد ﷺبغير إذنهم؟

فعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «رب متخوض في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه، له النار غداً» رواه البيهقى.

فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا؟، فقال له «سفيان»: أسكت، فإنما أهلك فرعون هامان، وهامان فرعون، ثم خرج «سفيان»، فقال أبو عبيدة الكاتب للمنصور: ألا تأمر بقتل هذا الرجل، فو الله ما أعلم أحداً أحق بالقتل منه، فقال أبو جعفر أسكت، فو الله ما بقى على الأرض أحداً اليوم يستحيا منه غير هذا – يقصد سفيان، ومالك بن أنس.

الثورى يواجه المهدى:

أراد المهدى، الخليفة العباسى، أن يتولى «سفيان الثوري» قضاء الكوفة، ولكن

سفيان كان يأبى ذلك، ليس هربا من مسؤولية القضاء، ولكن لعدم رغبته في أن يكون أحد عمال المهدى الظالم. الذى كان منكراً لخلافته.

قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدى، وأتى بسفيان الثورى كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه سلم ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئاً على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدى بوجه طلق، وقال له يا سفيان: تفر منا ها هنا وها هنا، تظن أن لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

قال «سفيان»: إن تحكم فيّ يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل، فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ آذن لي أن أضرب عنقه؟.

فقال له المهدى: اسكت، ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم. اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، بحيث لا يعترض عليه في حكم، فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج، ورمى به في دجلة، وغاب عن أنظار الناس، فطلب في كل بلد، فلم يوجد.

من واجب العالم تبصير الناس بتحرى الحق في أعمالهم وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى لا يكونون عوناً للظالمين فى ظلمهم.

مر شيخ من الكوفيين كان كاتباً، بسفيان الثورى، فقال له سفيان: يا شيخ، ولي فلان فكتبت له ثم عُزل، وولي فلان فكتبت له ثم عُزل، وولي فلان فكتبت له. وأنت يوم القيامة أسوأهم حالاً، يدعى بالأول فيسأل، ويدعى بك فتسأل معه عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يدعى بالأخر فيسأل وتسأل أنت عما جرى على يدك له، ثم يذهب وتوقف أنت حتى يدعى بالآخر، فأنت يوم القيامة أسوأ هم حالا(*).

(*) أحمد رضوان أبو الخير، من مواقف العلماء، دار المنار، ١٩٩٧، ص٢٩٠.

فقال الشيخ: فكيف أصنع يا أبا عبد الله بعيالى؟ فقال سفيان: اسمعوا هذا، يقول: إذا عصى الله، رزق عياله، وإذا أطاع الله ضيع عياله، ثم قال سفيان: لا تقتدوا بصاحب عيال، فما كان عذر من عوتب إلا أن قال عيالى.

لا يبيع إخلاصه :

لم يقل «سفيان الثوري» كلمات النفاق حرصاً على منصب أو مال، فهو لا يبيع إخلاصه بعرض زائل من أعراض الدنيا، لقى أبو جعفر المنصور في الطواف ولم يكن سفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال سفيان: لا، ولكنك قبضت عليّ قبضة جبار. قال أبو جعفر: عظني أبا عبد الله، قال سفيان: وماذا عملت بما عُلمت؟. فأعظك فيما جهلت، قال أبو جعفر: فما يمنعك أن تأتينا؟. قال سفيان: فإن الله نهى عنكم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود، الآية ١١٣].

فمسح أبو جعفر بيده به، ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء، فلقطوا إلا ما كان من سفيان، فلقد أعيانا فراراً.

كان «سفيان الثورى» في نصحه يعمل تبعاً للتوجيه الإلهى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل:١٢٥] حتى تؤتى دعوته ثمارها. يقول سفيان: «دخلت على أبى جعفر المنصور بمنى، فقلت له: اتق الله، فإنما أنزلت هذه المنزلة، وصرت إلى هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعاً.

حج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فما أنفق إلا ثمانية عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجر، فقال لي: إنما تريد أن أكون مثلك، فقلت: لا تكن مثلى، ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه، فقال لى: أخرج.

فقلت له: إنى لأعلم مكان رجل واحد، لو صلح صلحت الأمة كلها قال: من هو؟ قلت: أنت يا أمير المؤمنين».